الباب الأول

الرجل

obeikandl.com

الفصل الأول

حياته

اتفق أكثر من كتب عن الرجل الذى أسعى وراءه، على كنيته واسمه. فهو عندهم أبو عبد الرحمن يونس بن حبيب. ولم يخرج على هذا الاتفاق غير من كناه ابن النديم[1] "أبا سعيد" وروى عنه أن كنية يونس أبو محمد. ولم يتابعه أحد فى هذه الكنية. وقد أخفى هذا الاتفاق وراءه اختلافا فيمن يسمى "حبيب"، لأنه من الأسماء المشتركة التى تطلق على الرجال والنساء.

وصور ابن خلكان[2] هذا الاختلاف فقال: "حبيب اسم أمه – ولهذا[3] لا يصرفونه – فإنه لايعرف له أب. ويقال إنه ولد ملاعنة[4]. ويقال إنه اسم أبيه؛ فينصرف . والله أعلم . وكذلك محمد بن حبيب النسابة أيضا" . وإلى الرأى الأول

---

(١) الفهرست ٤٢.

(٢) وفيات الأعيان ٢/ ٧١٤.

(٣) يريد للعلمية والتأنيث.

(٤) الملاعنة بين الزوجين: أن يقذف الرجل امرأته أو يرميها برجل أنه زنى بها، فالامام يلاعن بينهما. ويبدأ بالرجل ويقفه حتى يقول: "أشهد بالله أنها زنت بفلان، وأنى لصادق فيما أرميها به". فإذا قال ذلك أربع مرات، قال فى الخامسة: "وعلى لعنة الله إن كنت من الكاذبين فيما أرميها به". ثم تقام المراة فتقول أيضا أربع مرات: "أشهد بالله أنه لمن الكاذبين فيما رمانى به من الزنا". ثم تقول فى الخامسة: "وعلى غضب الله إن كان من الصادقين". فإذا فرغت من ذلك بانت منه، ولم تحلّ له أبدا. وإن كانت حاملا فجاءت بولد، فهو ولدها ولا يلحق بالزوج لأن السنة نفته عنه. سمى ذلك كله لعنا وملاعنة لقول الزوج: "على لعنة الله إن كنت من الكاذبين" وقول المرأة: "على غضب الله إن كان من الصادقين".

ذهب الفيروز آبادى[1]، حين قال: "حبيب أمه، ولم أقف على اسم أبيه".

ولكن أبا أحمد العسكرى[2] روى خبرا، إن صح أبطل هذه الأقوال، قال: "أنشدنا الهزانى قال: أنشدنا الرياشى قال: حدثنا ابن أبى رجاء قال: حدثنا أبو ثوبان: قال يونس: "أرسلنى أبى إلى رؤبة أسأله: كيف ينشد هذا البيت:

أبنى لبينى لستم بيد إلا يد ليست لها عضد

أم يدا؟ فقال: كيف شئت". فالخبر يصرح أن "أباه" هو الذى أرسله إلى رؤبة مستفهما.

وبالرغم من ذلك فإنى أشك فى هذا الخبر، أو فى صورته هذه. فلم أجد أحدا ممن أرخ للغويين والنحويين ترجم لهذا "الأب"، ولم أجد أحدا روى عنه أو أورد أخبارا أخرى عن يونس عنه. وأظن أن تحريفا وقع فى نص الخبر، وأن صحته "أرسلنى أبو عمرو إلى رؤبة أسأله"، فسقط "عمرو" فغير أحد النساخ "أبو" إلى "أبى".

وتتكرر الظاهرة نفسها فى أمر آخر. فقد أجمع المؤرخون على أن يونس مولى، ثم اختلفوا فيمن ارتبط به بالولاء. وكان ابن خلكان[3] أيضا الذى أحسن تصوير الاختلاف فى قوله: "قال أبو عبد الله المرزبانى فى كتابه "المقتبس فى أخبار النحويين": هو مولى ضبة، وقيل: هو مولى بنى ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة، وقيل: مولى بلال بن هرمى، من بنى ضبيعة بن بجالة".

---

(١) تحفة الأبيه ١١٠.

(٢) شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ٣٦٣.

(٣) وفيات الأعيان ٢: ٤١٦.

واقتصر ياقوت[1] على ذكر القبيلتين، فقال: "الضبى"، وقيل :الليثى، بالولاء". ورجح المبرد ولاءه إلى ثانيتهما، روى القفطى[2] : "قال المبرد محمد بن يزيد: يونس بن حبيب أبو عبد الرحمن، أراه مولى بنى ليث". ومال أبو الحسن الخزاز إلى ذلك استنباطا، قال[3] : "أراه مولى لبنى ليث.. لا أحقه، ولكنه كان يكون مع هؤلاء، فلا أدرى هو مولى أم لا".

ولكننى أعتقد أن الحكم فى هذا الأمر تلميذه أبو عبيدة معمر بن المثنى[4]، الذى أعلن ولاءه لبلال، من بنى ضبيعة، وهو الذى ذكره جرير فى قوله:

يا ضب، على أن تصيب مواسمى كوزا على حنق ورهط بلال

ونستبين من قصيدة جرير أن بلالا من بنى ضبة، فولاء يونس له ولاء لبنى ضبة، فلا خلاف بين نسبته بالولاء إلى الرجل أو إلى قبيلته.

ويتبادر إلى الذهن من هذه الأقوال أن يونس فارسى الأصل. ولكن بروكلمان[5] له رأى آخر ليس ببعيد، قال: "زعم مصنف "مفاخر العجم" أنه أعجمى.. ولكنه يجوز أن يكون أيضا من النبط الآراميين".

ولا خلاف بين المؤرخين أنه ولد فى جبل، وهى بلدة صغيرة بالعراق على دجلة، ذكر ابن خلكان[6] أنها بين واسط وبغداد، وذكر

---

(١) معجم الأدباء ٢٠ : ٦٤.

(٢) إنباه الرواة – المجلد الثانى ٣٦٤.

(٣) الفهرست ٤٢.

(٤) شرح النقائض ١ : ٣٣٢.

(٥) تاريخ الأدب العربى ٢:١٣٠ وانظر الفهرست ٤٢.

(٦) وفيات الأعيان ٢: ٤١٧.

ياقوت[1] أنها بين واسط والنعمانية. ولا تناقض بين القولين، غير أن قول ياقوت أدق. فآثار البلدة تقوم الآن فى لواء الكوت، بين مدينى الكوت والحسينية، مقابل أم البنى، عند خط طول ٤٢ َ – ٤٥ ° شرقا وخط عرض ٣٣ َ – ٣٢ ° شمالا.

وكان يونس لا يحب أن ينسب إلى بلدته، أو يذكر بها. روى الأصمعى[2] أنه لقيه رجل من ولد أبى عمير، فأراد أن يسخر منه، فقال: " يا أبا عبد الرحمن، ما تقول فى "جبل" : أينصرف؟" فسبه. والتفت العميرى فلم ير أحدا يشهده عليه. فتركه حتى إذا كان من الغد، وجلس يونس للناس، أتاه العميرى وأعاد السؤال: "يا أبا عبد الرحمن، ما تقول فى "جبل" : أينصرف؟" فرد عليه يونس : "الجواب ما قلت لك أمس" . ولعل سبب هذه الكراهية أن جبل تذكره بمولده غير الكريم، أو بأصله غير العربى، وخاصة إن كان من الأنباط، الذين لم يحترمهم العرب.

مولده

اختلف العلماء فى السنة التى ولد يونس فيها اختلافا حكاه ابن خلكان[3] فى قوله: "مولده سنة تسعين .. وقيل : مولده سنة ثمانين". واقتصر السيوطى[4] على التاريخ الأول، وياقوت[5] على الثانى. ونقل ابن الجزرى[6] أن وفاته كانت فى سنة ١٨٥هـ عن ٨٨ سنة، ويعنى هذا أنه ولد فى سنة سبع وتسعين هجرية أو ما قاربها.

---

(١) معجم البلدان ٢ : ٢٣.

(٢) القفطى ٢: ٣٦٤ . ابن خلكان ٢ : ٤١٧.

(٣) وفيات الأعيان ٢ : ٤١٦.

(٤) بغية الوعاة ٣٦٥.

(٥) معجم الأدباء ٢٠ : ٦٧.

(٦) غاية النهاية ٢: ٤٠٦.

ولكننا نعرف أنه أخذ عن حماد بن سلمة، وأن محمد بن سلام الجمحى سأله: "أيما أسن: أنت أو حماد؟" فقال: هو أسن منى، ومنه تعلمت العربية"[1]. ولم أجد من ذكر مولد حماد، ولكنهم أعلنوا أنه مات فى سنة ١٦٥ أو ١٦٧، أو ١٦٩هـ بعد أن كبر وأهتر، كما قال بعضهم؛ وقارب الثمانين، فى قول بعضهم الآخر. وإذن فمولد حماد بين سنتى ٨٥، و ٨٩هـ أو قريبا منهما. ويقطع هذا باستحالة أن يكون مولد يونس فى سنة ٨٠هـ.

وذكر ابن خلكان[2] أنه "كان يقول: أذكر موت الحجاج .. وقيل: إنه رأى الحجاج". ولما كان الحجاج بن يوسف الثقفى – المعنى بهذا الكلام – قد مات فى سنة ٩٥، كان القول بأن يونس ولد فى سنة ٩٧ غير صحيح.

ولا يبقى عندنا غير سنة ٩٠، وهى التى تصلح لأن تكون مولدا ليونس على كل الأقوال. ويرجحها أيضا سؤال ابن سلام الذى يدل على أن الفرق بين عمرى حماد ويونس كان من الضآلة بحيث يشتبه على الناس ويحتاج إلى السؤال عنه.

وفاته

طال العمر بيونس حتى ثقلت حركته. قيل إنه دخل المسجد يوما وهو يتهادى بين اثنين من الكبر. فقال له رجل كان يتهم مودته: "بلغت ما أرى، يا أبا عبد الرحمن!" فقال له: "هو الذى ترى فلا بلغته"[3]. وكثيرا ما كان ينشد قول الشاعر:

---

(١) نزهة الألباء ٢٦ . السيرافى ٣٤.

(٢) الوفيات ٢ : ٤١٦.

(٣) أبو الطيب ٢١ ابن خلكان ٢: ٤١٧. القفطى ٢ : ٣٦٣. الحيوان للجاحظ ٥ : ٥٩١ ابن الجزرى ٢ : ٤٠٦. نزهة الألباء ٣٤. عيون الأخبار ٢ : ٣٢٠. المعمرون ٧٢ . أمالى المرتضى ١ : ٢٥٧.

حنتني حانيات الدهر حتى كأني خاتل يدنو لصيد

قريب الخطو يحسب من رآني -ولست مقيدا- أني بقيد

اتفق المؤرخون على هذا، ثم اختلفوا فى قدر عمره، والسنة التى توفى فيها، واقتصر أكثرهم على إيراد الأقوال المتنازعة دون ترجيح.

وأقل ما قالوا من أعوام عاشها يونس ٨٨ سنة، وأعتقد أن الذين أتوا بهذا الرقم اعتمدوا على قول لاسحاق بن إبراهيم الموصلى[١]؛ وعلى هذا القول نفسه اعتمد السيوطى حين قال إنه قارب تسعين سنة[٢]. وحكى ابن خلكان فيما حكى عن المرزبانى أنه عاش ٩٨ عاما[٣]. وكان من الروايات التى أوردها ابن الجزرى وابن قاضى شهبة أنه قارب المئة[٤]، ولعلهما اعتمدا فى ذلك على قول المرزبانى السابق. وصرح اللغوى المعروف ثعلب[٥] أنه جاوز المئة. وكان أطول عمر وهبوه للرجل مئة سنة واثنتين[٦].

وأغرب الروايات فى وفاته ما نقله بروكلمان[٧] عمن يقول إن ذلك كان فى سنة ١٥٢هـ. فالمعروف أن سيبويه مات قبل جماعة كان قد أخذ عنهم كيونس وغيره[٨]، وأن سيبويه مات فى سنة ١٦١ أو بعدها.

---

(١) ابن خلكان ٢ : ٤١٦. القفطى ٢ : ٣٦٦. ابن قاضى شهبة ٢٥٢ . الفهرست ٤٢.

(٢) البغية ٢: ٣٦٥.

(٣) الوفيات ٢ : ٤١٦ ، ٤١٧.

(٤) الغاية ٢: ٤٠٦ . الطبقات ٢٥٢.

(٥) نزهة الألباء ٣٤. القفطى ٢ : ٣٦٥، ٣٦٦ ابن الجزرى ٢ : ٤٠٦ . ابن قاضى شهبة ٣٥٢. الفهرست ٤٢.

(٦) ابن خلكان ٢ : ٤١٦ ياقوت ٢٠ : ٦٧ ابن العماد ١: ٣٠١.

(٧) تاريخ الأدب العربى ٢ : ١٣٠.

(٨) السيرافى ٣٧.

ثم تجمع سائر الأقوال على أن وفاة يونس كانت فى العقد الثامن بعد المئة. وقد أجمل رجلان القول ولم يحدداه، قال ابن العماد[1] فى وفيات سنة ١٨٢هـ : "وفيها وقيل قبلها أو بعدها توفى يونس". وقال ابن الجزرى[2] : "توفى بعد اثنتين وثمانين ومئة".

أما بقية الرجال فقد حددوا سنوات تقع بين ١٨٢ و ١٨٥. فانفرد ابن خلكان وابن الجزرى[3] بإيراد قول يصرح أن الوفاة وقعت سنة ١٨٥هـ، وأولهما بإيراد قول عبد الباقى بن قانع الذى أعلن أن ذلك كان سنة ١٨٤هـ. وتتكاثر الأقوال حول السنتين الباقيتين، فاتفق الزبيدى والجاحظ وياقوت وأبو الطيب والقفطى وابن قاضى شهبة والسيوطى على سنة ١٨٢[4]، والسيرافى وثعلب وابن الأنبارى والقفطى على سنة ١٨٣هـ[5] .

أخلاقه

إذا أردنا أن نتعرف مذهب الرجل ودينه وجدنا أمامنا بعض الأقوال المتناثرة التى تلقى عليه بعض الأضواء.

قال إبراهيم الحربى[6] إن أهل العربية كلهم أصحاب أهواء، إلا أربعة فإنهم

---

(١) شذرات الذهب ١ : ٣٠١.

(٢) غاية النهاية ٢ : ٤٠٦.

(٣) وفيات الأعيان ٢ : ٤١٧. غاية النهاية ٢ : ٤٠٦.

(٤) مراتب النحويين ٢١. ابن خلكان ٢ : ٤١٦ . السيوطى ٢ : ٣٢٥ . القفطى ٣ : ٣٦٥ ابن قاضى شهبة ٢٥٢ . بروكلمان ٢ : ١٣٠. الحيوان ٥ : ٥٩١ . معجم الأدباء ٢٠ : ٦٧.

(٥) السيرافى ٣٧ ابن الأنبارى ٣٤ ابن خلكان ٢ : ٤١٧ . القفطى ٢ : ٣٦٦ الفهرست ٤٢.

(٦) ابن الأنبارى ١٧ ، ٨٤ . ابن حجر تهذيب التهذيب ٣: ١٦٤.

كانوا أصحاب سنة: أبو عمرو بن العلاء، والخليل بن أحمد، ويونس بن حبيب البصرى، والأصمعى.

ولما كان الثلاثة الآخرون يتمتعون عند الدارسين بأقصى درجات الاحترام، ويشغلون أسمى مكانة، دل هذا على ما كان يتمتع به يونس من احترام وتبجيل.

ويؤيدنا فى هذا قولان آخران ينسبان إلى اثنين من أشهر العلماء والكتاب. قال أبو حاتم السجستانى[1] فإذا فسرت حروف القرآن المختلف فيها، أو حكيت عن العرب شيئا، فإنما أحكيه عن الثقات عنهم مثل أبى زيد والأصمعى وأبى عبيدة ويونس وثقات من فصحاء الأعراب وحملة العلم". ويمنحنا هذا القول مكانة يونس عند أتباع مدرسة البصرة فى اللغة خاصة.

أما القول الثانى فيمنحنا مكانة يونس عند الأدباء عامة، وفى مروياته. قال الجاحظ[2] ومن أراد الأخبار فليأخذها عن مثل قتادة (بن دعامة السدوسى)، وأبى عمرو بن العلاء، وابن جعدبة (يزيد بن عياض الليثى)، ويونس بن حبيب، وأبى عبيدة، ومسلمة بن محارب.. فإن هؤلاء وأشباههم مأمونون، وأصحاب توقٍّ وخوف من الزوائد، وصون لما فى أيديهم، وإشفاق على عدالتهم".

وكان يونس حريصا ألا يخوض فى المسائل التى فرقت بين المسلمين. قيل إنه جرى ذكر القدر فى أحد مجالسه، فسئل عن رأيه فيه، فقال: "لا فكر لى فيه"[3].

---

(١) أبو الطيب ٩٠ المزهر ٢ : ٤١٠.

(٢) البغال (رسائل الجاحظ) ٢ : ٢٦٦ – ٨ .

(٣) القفطى ٢ : ٣٦٥.

ولكن حرصه هذا لم يمنعه من إبداء رأيه فى بعض المسائل، التى كان الاختلاف فيها قليل الخطر. قال محمد بن سلام[1]: "سمعنى يونس يوما أرادّ التميمية فى خالد (بن الوليد، فى قتله مالك بن نويرة فى حروب الردة) وأعذره. فقال: "يا أبا عبد الله، أما سمعت بساقى أم تميم؟" – يعنى زوجة مالك – "أو صارت أم تميم إلى خالد بنكاح أو سباء؟ وما عابه عليه عمر بن الخطاب قال: قتلت امرءا مسلما ووثبت على امرأته بعقرباء يوم بنى حنيفة!".

بل بلغ من جرأته أن عاب بعض الأنبياء فى تصرفات لهم. ذكر عمر بن شبة عن خلاد بن يزيد عن يونس قال[2] : "ثلاثة والله أشتهى أن أمكّن من مناظرتهم يوم القيامة: آدم عليه السلام، فأقول له: قد مكنك الله من الجنة وحرم عليك شجرة، فقصدت لها، حتى ألقيتنا فى هذا المكروه؛ ويوسف عليه السلام أقول له: كنت بمصر وأبوك عليه السلام بكنعان، بينك وبينه عشر مراحل، يبكى عليك حتى ابيضت عيناه: لم لم ترسل إليه أنى فى عافية وتريحه مما كان فيه من الحزن؟؛ وطلحة والزبير أقول لهما: على بن أبى طالب عليه السلام بايعتماه بالمدينة وخلعتماه بالعراق، لأى شئ أحدث؟ ".

وكان يونس رضى الخلق، يثنى على أساتذته وزملائه وتلاميذه، ويعترف لكل منهم بفضله، ويبادر إلى تصديق أقوالهم، ويورد من الأقيسة ما يدعمها.

يتجلى لنا ذلك فى موقفه من أستاذه عيسى بن عمر. روى ابن السيد البطليوسى[3] : "قال سيبويه: وزعم عيسى بن عمر أن ناسا من العرب يقولون: إذن

---

(١) طبقات فحول الشعراء ١٧٣.

(٢) السيرافى ٢٩ . ابن قاض شهبة ٢٥٢. نزهة الألباء ٣٣.

(٣) الحلل ٤١ ظ.

أفعلُ ذلك، فى الجواب، بالرفع. قال سيبويه: فأخبرت بذلك يونس فقال: "لا يعد ذا ، ولم يكن ليروى إلا ما سمع، جعلوها بمنزلة هل وبل. أراد أنهم لم يُعملوها".

وأشاد بذكاء زميله، ومنافسه على رئاسة علم النحو فى البصرة، أحسن الاشادة. قال أبان بن رزين البصرى[1] : زعم يونس النحوى أن الخليل بن أحمد كان يستدل بالعربية على سائر اللغات ذكاء منه وفطنة.

وعندما برز واحد من تلاميذه فى العلم الذى منحه حياته لم يمتنع عن إيفائه حقه من التقريظ والتشجيع، وأشاع ذلك بين بقية تلاميذه. قال الفراء[2]: "دخلت البصرة فلقيت يونس وأصحابه، فسمعتهم يذكرون سيبويه بالحفظ والدراية وحسن الفطنة".

واتجه تلميذ آخر له اتجاها يخالف اتجاه يونس بعض الشىء، فلقى فيه الشىء الكثير من النجاح والشهرة. فكان الأستاذ من المغتبطين بما لقى التلميذ، والمعترفين له باتجاهه وإجادته فيه، حتى لو كشف ذلك عن تقصير منه فيه. روى ابن عبد ربه عن مروان بن أبى حفصة قال[3]: "لما مدحت المهدى بشعرى الذى أوله:

طرقتك زائرة فحى خيالها بيضاء تخلط بالحياء دلالها

أردت أن أعرضه على بصراء البصرة. فدخلت المسجد الجامع، فتصفحت الحلق فلم أر حلقة أعظم من حلقة يونس النحوى. فجلست إليه فقلت له: إنى مدحت المهدى بشعر، وأردت ألا أرفعه حتى أعرضه على بصرائكم، وإنى تصفحت الحلق فلم أر حلقة أحفل من حلقتك، فإن رأيت أن تسمعه منى فافعل. فقال: يابن

---

(١) ابن المعتز : طبقاته ٩٧.

(٢) السيوطى: المزهر ١ : ٢٠٢.

(٣) العقد الفريد ٥ : ٣٠٦ ولكننا يجب أن نتوقف فى هذا الخبر، لأنه روى أيضا بصورة تخالف الاستدلال به هنا.

أخي؛ إن ها هنا خلفا (الأحمر) ولايمكن أحدنا أن يسمع شعرا حتى يحضر، فإذا حضر فأسمعه..".

بل كان يقر بالاجادة لنظرائه من العلماء بالعربية، ولو كانوا من غير البصرة، إذا ما أبدوا الرأى المعجب ولو خالف ما عنده. قال محمد بن سلام[1]: "قدم الكسائى البصرة مع الرشيد. فجلس إلى يونس فى حلقته. فألقى عليه بعض من حضر المجلس بيتا للفرزدق:

غداة أحلت لابن أصرم طعنة حصين عبيطات السدائف، والخمر

فأنشده هكذا. فقيل للكسائى: "على أى شىء رفعت الخمر؟ "فقال: "أضمرت فعلا كأنه قال: وحلت له الخمر". فقال يونس: "ما أحسن والله ما وجهته، غير أنى سمعت الفرزدق ينشد:

غداة أحلت لابن أصرم طعنة حصين عبيطات السدائف، والخمر

جعل الفاعل مفعولاً، كما قال الحطيئةأ

فلما غشيت الهون والعير ممسك على رغمه، ما أمسك الحبل حافره

والقصيدة على الرفع، جعل الفاعل مفعولا. فقال الكسائى: "هذا على هذا وجه".

ولكن بعض الشبان فى حلقة يونس لم يعجب بمسلكه[2] وأراد أن يحرج الرجل ويتنقصه، فأخذ يوجه إليه السؤال بعد السؤال. ولكن يونس لم يرض عن هذا الأمر، وقال غاضبا: "تؤذون جليسنا ومؤدب أمير المؤمنين".

---

(١) القفطى: ٢ : ٣٦٧. شرح إعراب أبيات الجمل ١٠٢ ظ . وانظر البغية ٢ : ١٦٣.

(٢) السيرافى ٢٧ . مجالس العلماء ٢٤٤.

ويذكرنا هذا بموقف مشابه كان ليونس نفسه في شبابه. روى أبو عبيدة عن يونس قال[1] : "كنت عند أبي عمرو فجاءه شبيل بن عزرة الضبعي. فقام إليه وألقى له لبد بغلته، فجلس عليه ثم أقبل عليه يحدثه. فقال شبيل: "يا أبا عمرو، سألت رؤبتكم عن اشتقاق اسمه فما عرفه! " – يعني رؤبة . فلم أملك نفسي عند ذكره فرجعت إليه ثم قلت له: "لعلك تظن أن معد بن عدنان أفصح منه ومن أبيه! أفتعرف أنت ما الروبة، والروبة، والروبة، والروبة، والروبة؟ فأنا غلام رؤبة". فلم يحر جوابا وقام مغضبا. فأقبل عليَّ أبو عمرو وقال: هذا رجل شريف يقصد مجالسنا ويقضي حقوقنا وقد أسأت فيما فعلت مما واجهته به! "فقلت له: "لم أملك نفسي عند ذكر رؤبة" فقال أبو عمرو: "أو سُلّطت على تقويم الناس؟".

فيونس قد أفاد من أبي عمرو أدبا تحلى به في شيخوخته. ولكن هذا الأدب لم يمنعه من معارضة الكسائي، وتوجيهه إلى المسلك العلمي الحق في بعض الأحيان. فقد سأل الشرادانى – من تلاميذ يونس – الكسائي[2] : "كيف تصغر حسينا؟ "فقال: "حسينين" فقال مستنكرا: "أتصغر مصغرا ؟ هذا ما لا نهاية له. فوثب رجل كان مع الكسائي على الشرادانى وقال: "أتقول هذا لمؤدب أمير المؤمنين؟ "فكان رد يونس الحاسم: "مغالبة العلم بالحجة لا بالسلطة".

ولعل هذا الأدب الذى تحلى به يونس هو الذى جعله يعتمد على الكناية حين

---

(١) فسر يونس لتلاميذه الروبات فقال: الروبة: خميرة اللبن. والروبة قطعة من الليل. ويقال: لا يقوم بروبة أهله: أى بما أسندوا إليه من أمورهم والروبة: جمام ماء الفحل. والرؤبة – مهموزا : القطعة التى يشعب بها الإناء. وانظر القفطى ٢ : ٣٦٤. المزهر ١: ٣٧٠ . المراتب ٢٢. مجالس العلماء ٣٠٣. سمط اللآلى ١٩٤.

(٢) العسكرى: شرح ١٢٦.

يريد أن يذكر بعض الصفات الكريهة فى بعض من يعرف. ولذلك قال عن خلف الأحمر حين اضطر إلى الحديث عنه[1]: "يضرب ما بين الكركى إلى العندليب".

ولم أعثر على ما يعيبه غير الخبر الذى يذكر أنه السبب فى مقتل بشار بن برد. روى أبو الفرج فى أحد أخباره[2] أن بشارا هجا الخليفة المهدى، والوزير يعقوب بن داود، فأفحش فى الهجاء. ثم أنشد هجاءه فى حلقة يونس، فسعى به إلى الوزير. ففضب ونقل الهجاء إلى الخليفة فأمر بقتله فقتل.

ولكن الخبر – بصورته السابقة – غير صحيح. فالحق[3] أن غزل الرجل الماجن، واشتهاره بالزندقة، ورثاءه أصدقاءه من الزنادقة الذين قتلهم المهدى، وأخيرا هجاءه للخليفة، كل ذلك أغضب الخليفة عليه. وعندما قدم المهدى إلى البصرة فى سنة ١٦٨ سأل عنه، فشهد أمامه شهود موثقون بأنه زنديق، فأمر بضربه حتى الموت. وكان يونس أحد هؤلاء الشهود، قال عند سؤاله[4]: "إن بشارا زنديق وقامت عليه البينة عندى بذلك".

وقد فرح يونس بمقتل بشار. قال سالم بن على[5] : "كنا عند يونس فنعى بشارا إلينا ناع، فأنكر يونس ذلك وقال: لم يمت. فقال الرجل: أنا رأيت قبره. فقال: أنت رأيته؟ قال: نعم وإلا فعلىّ وعلى؛ وحلف له حتى رضى. فقال يونس: لليدين وللفم".

---

(١) الجاحظ: الحيوان ٥ : ١٤٩ ، ٦ : ٤٠٩.

(٢) الأغانى ٣ : ٢٤٣.

(٣) شوقى ضيف: تاريخ الأدب العربى – العصر العباسى الأول ٢٠٦.

(٤) الأغانى ٣ : ٢٤٦.

(٥) الأغانى ٣: ٢٤٧.

ولكن هذا الفرح لا يعيب الرجل، لأنه كان أحد أبناء البصرة، التى احتفلت بهذا الموت احتفالا خاصا. قال عمر بن شبة[1] : أمر المهدى عبد الجبار صاحب الزنادقة فضرب بشارا، فما بقى بالبصرة شريف إلا بعث إليه بالفرش والكسوة والهدايا. وقال أبو الفرج[2] : لما مات بشار ونعى إلى أهل البصرة تباشر عامتهم وهنأ بعضهم بعضا، وحمدوا الله، وتصدقوا، لما كانوا منوا به من لسانه.

وإذن فيونس برىء من تهمة الوشاية ببشار، ووصمة الشماتة بمقتله إذ لم ينفرد بذلك دون بقية كبار رجال البصرة.

وآخر ما وجدت من طباع يونس وأخلاقه أنه كان يشرب المطبوخ[3] .

---

(١) الأغانى ٣ : ٢٤٧.

(٢) الأغانى ٣ : ٢٤٨.

(٣) القفطى ٢ : ٣٦٥.

obeikandl.com

الفصل الثانى

طالب العلم

كان يونس بن حبيب يرفع قدر العلم حتى قال[1]: "علمك من روحك ومالك من بدنك".

وكان يرى أن علم العربية خاصة أمر ضرورى لكل رجل، لابد أن يحسنه علما وعملا، أو نظرا وتطبيقا، حتى يتحلى بالفصاحة والبيان. قال[2]: "ليس لعيى مروءة، ولا لمنقوص البيان بهاء، ولو بلغ يافوخه أعنان السماء".

لاعجب إذن أن يشتغل رجل هذه آراؤه بالعلم عامة، والعربية خاصة، بل أن يقبل عليه حتى ينسى كل شئ غيره. فكان أول ما ينسى طعامه وشرابه، قال[3]: "ما أكلت فى شتاء شيئا قط إلا وقد برد، ولا أكلت فى صيف شيئا إلا وقد سخن".

وكان مما نسى أو تشاغل عنه أسرته حتى اعتقد بعض الناس أنه لا أسرة له. قال إسحاق بن إبراهيم الموصلى[4]: "عاش يونس ثمانية وثمانين سنة، لم يتزوج ولم يتسرَّ، ولم يكن له همة إلا طلب العلم ومحادثة الرجال". ولكن هذا القول غير صحيح، لأننا نعرف واحدا من أبناء يونس كان يسمى حرميا، روى القراءة عنه.

---

(١) عيون الأخبار ٢ : ١٢١.

(٢) عيون الأخبار ٢: ١٧٥. البيان والتبيين ١ : ٧٧. ربيع الأبرار ٤ : ٩٩.

(٣) الجاحظ : الحيوان ٣ : ٤٦٩.

(٤) القفطى ٢: ٣٦٦ . ابن خلكان ٢: ٤١٦. البغية ٢ : ٣٦٥ الفهرست ٤٢.

شيوخه

ولا يذكر المؤرخون ليونس أين طلب العلم أولا، ولا متى، ولا فى أى سن. فلا ندرى هل كان ذلك فى بلدته الأولى أو كان فى البصرة، بل لا ندرى متى انتقل إلى البصرة. ولكن الذى نقطع به أنه أخلص حياته للعلم، وأنه طلبه فى كل مكان سمع أنه فيه، ومن كل مجال.

ونستطيع أن نلمح فى دراسته لونين، كانا شائعين فى عصره: دراسة منتظمة، وأخرى غير منتظمة. أما المنتظمة فكانت من علمى القراءة والعربية. فتلقى العلم الأول عن أبان بن يزيد العطار، والحسن بن عمران الشحام، وأبى عمرو بن العلاء[1]. وتلقى الثانى عن حماد بن سلمة وأبى عمرو أيضا[2].

وليس فيما بقى من أقوال يونس وأخباره صدى لهؤلاء الشيوخ، سوى أبى عمرو. فالأقوال التى نقلها عن حماد نادرة بل تكاد تكون معدومة، بالرغم أنه كان يفضله[3]. ومثال ما رواه عنه ما جاء فى نزهة الألباء[4]: "حكى أبو الحسن

---

(١) الفهرست ٢٨. النزهة ٢٦. الغاية ٢ : ٤٠٦. الوفيات ٢ : ٤١٦. معجم الأدباء ٢٠ : ٦٤ . إنباه الرواة ٢ : ٣٦٣ . ابن قاضى شهبة ٢٥٢.

(٢) ابن سلام ١٤. المراتب ٢٢ . السيرافى ٢٧، ٣٤ . مجالس العلماء ٢٤٣. الأزهرى ٢٩. ابن النديم ٤٢. ابن الجزرى ٢: ٤٠٦ . ابن العماد ١ : ٣٠١ . المزهر ٢ : ٣٩٩ . البغية ٢ : ٣٦٥ . الشريشى ٢ : ٤٠٢.

(٣) النزهة ٢٧. قال ابن الأنبارى: "وحكى أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب عن محمد بن سلام فى ترتيب النحويين من البصريين فقال: وحماد – يعنى حماد بن سلمة – كان يونس بن حبيب يفضله" . وقد أدى ذكره حماد دون تحلية إلى خطأ كثيرين إذ ظنوه حماد بن الزبرقان. انظر السيرافى ٣٤.

(٤) ٢٧.

الأخفش، عن يونس بن حبيب: أن حمادا حدثه أن ناسا من العرب يقولون في النسب إلى شية: شِيَوى، والوجه فيه غير ذلك، وهؤلاء كأنهم قلبوا موضع الفاء فوضعوه في موضع اللام.

أما أبو عمرو بن العلاء فكان يونس يرفعه مكانا عليا، ويثق فيه كل الثقة، ويقول[1]: "لو كان أحد ينبغي أن يؤخذ بقوله كله في شيء واحد كان ينبغي لقول أبي عمرو بن العلاء في العربية أن يؤخذ كله، ولكن ليس أحد إلا وأنت آخذ من قوله وتارك". فلا عجب أن تكون أكثر رواية يونس عنه، فلا تحتاج إلى مثال للتدليل.

وكان في عصر حماد وأبي عمرو أو في عصر سابق عليهما قليلا: عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي. فعاصره يونس ورآه. ولكن ابن النديم[2] حكى عن يونس أنه قال: "لم أسمع من عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي، ولكني سألته هل يعلم أحدا يقول: الصويق، مكان: السويق، فقال: "هي لغة عمرو بن تميم".

وأخال أن ابن النديم مخطئ في إنكاره سماع يونس من عبد الله، وأنه لم يصب في فهم الخبر. فحقيقته التي أوردها ابن سلام[3] قلت ليونس: "هل سمعت من ابن أبي إسحاق شيئا؟ "قال: "قلت له: هل يقول أحد: الصويق .." ولم يرد بذلك حصر سماعه في هذا الإبدال، بل أراد إثبات السماع.

والدليل على ذلك أن يونس كان يبجل عبد الله ويرى أنه أعظم علماء عهده

---

(١) ابن سلام ١٥، الأزهري ٤، النزهة ١٥.

(٢) الفهرست ٤٢.

(٣) طبقات فحول الشعراء ١٥.

فى النحو، وأنفذهم ذكاء. قال محمد بن سلام[1]: "سمعت أبى يسأل يونس عن ابن أبى إسحاق وعلمه، فقال: "هو والنحو سواء". أى هو الغاية. قال: "فأين علمه من علم الناس اليوم؟ "قال: "لو كان فى الناس اليوم من لا يعلم إلا علمه يومئذ لضُحك به، ولو كان فيهم أحد له ذهنه ونفاذه، ونظر نظرهم، كان أعلم الناس". فغير معقول أن يرى فيه هذا الرأى وأن يعاصره أكثر من ربع قرن ثم لا يسمع منه.

والحق إن يونس سمع من ابن أبى اسحاق وروى عنه. قال أبو عبيدة عن يونس قال[2]: "مضيت إلى عبد الله بن أبى اسحاق الحضرمى فقلت له: "كيف تقرأ (فإذا برق البصر؟) " فقال : فإذا برق البصر، وفتح الراء. فقمت من عنده إلى أبى عمرو فقلت: "من أين بك؟" قلت : من عند عبد الله بن أبى إسحاق الحضرمى، سألته: كيف تقرأ (فإذا برق البصر) فقال: "فإذا برق البصر، بفتح الراء". فقال أبو عمرو: "أين يُراد به، يقال: برَقت السماء، وبرق النبت، وبرقت الأرض، فأما البصر فبرِق؛ كذا سمعنا".

وقال أبو عبيدة أيضا[3]: "زعم يونس عن ابن أبى إسحاق قال: أصل الكلام بناؤه على فعل، ثم يبنى آخره على عدد من له الفعل من المؤنث والمذكر، من الواحد والاثنين والجميع، كقولك: فعلت وفعلنا وفعلن وفعلا وفعلوا. ويزاد فى أوله ما ليس من بنائه، فيزيدون الألف كقولك: إعطيت، انما أصلها عطوت، ثم يقولون: معطى، فيزيدون الميم بدلا من الألف .. " فلا شك عندى فى أخذ يونس عن ابن أبى إسحاق سماعا فى بعض الأحيان، ورواية عن أبى عمرو فى بعضها

---

(١) المرجع السابق ١٤ السيرافى ٢٠ . النزهة ١١. الزبيدى ٢٦.

(٢) مجالس العلماء ٢٤٧.

(٣) مجاز القرآن ١: ٣٧٦ . وانظر القفطى ٢ : ٣٦٥.

الآخر، فيما أظن[1].

ولم يعلن أحد من الذين أرخوا ليونس ممن رجعت إليهم أنه أخذ عن محمد بن مسلم الزهرى. ولكننى عثرت على رواية له عنه[2]، تعرض فيها لتفسير آية ﴿وما علمناه الشعر﴾. وغير بعيد أن يأخذ يونس عن الزهرى، فقد مات هذا فى سنة ١٢٣هـ أو بعدها وعرف بالحديث والأخبار. وكان ليونس شغف بالأخبار العربية، ومشاركة فى الحديث، حتى ذكره ابن أبى حاتم فقال[3]: هو صاحب غريب.

وأضاف ثعلب شيخا آخر ليونس بن حبيب. قال فى أماليه[4]: "كان يونس يقول: "حدثنى الثقة عن العرب". فقيل له: "من الثقة؟" قال: "أبو زيد". قيل له: "فلم لا تسميه؟" قال: "هو حى بعد فأنا لا أسميه". لكن هذا القول غير صحيح أيضا. فالمعروف أن الذى كان يروى عن أبى زيد الأنصارى، ويلقبه الثقة، ويكنى بذلك عنه فى روايته هو سيبويه. أما يونس فلم يفعل ذلك، بل كان شيخا لأبى زيد.

وزاد بروكلمان[5] شيخا أخيرا هو أبو الخطاب عبد الحميد بن عبد المجيد الأخفش الأكبر. ولكننى لم أعثر على المصدر الذى استقى منه هذا القول، فأنا متوقف فى صحته.

---

(١) انظر روايتهما ما نشب من خلاف بين ابن أبى اسحاق والفرزدق فى الموشح للمرزبانى ١٠١، وطبقات ابن سلام ١٩.

(٢) السيرافى ٥٦.

(٣) طبقات ابن قاضى شهبة ٢٥٢.

(٤) المزهر ١ : ١٤٣، ١٥٢. الاقتراح ٢٨.

(٥) تاريخ الأدب العربى ٢ : ١٣٠.

الأعراب

واللون الثانى من الدراسة، وهو الذى وصفته بالدراسة غير المنتظمة، أعنى به الدراسة التى حصلها عن غير شيخ أو عالم معروف. وأهم ما يندرج تحت هذا اللون من الدراسة فى ذلك الزمن الرحلة إلى البادية، والعيش مع الأعراب الفصحاء فى مواطنهم، والحوار معهم، حتى قيل[1] إن الكسائى لما ارتحل إلى البصرة وجلس فى حلقة الخليل بن أحمد ليأخذ عنه، استنكر عليه أحدهم هذا الفعل وقال له: "تركت أسدا وتميما وعندهما الفصاحة وجئت إلى البصرة!" فسأل الخليل: "من أين علمك هذا؟" فقال: "من بوادى الحجاز ونجد وتهامة".

وتدور عبارة واحدة عند كل من كتب عن يونس تدل على هذه الدراسة، تقول[2]: "وقد سمع من العرب كما سمع من قبله".

ولم أجد نصا يصرح بأن يونس "سمع من العرب" فى "باديهم" بالرحلة إليهم، وإن كنت أرجح أنه قد فعل، بالرغم من وجود نص يدل على أن "العرب" أنفسهم كانوا يفدون على يونس فى البصرة. ولا يقل هذا النص دورانا عند الكاتبين عن يونس عن النص السابق؛ ويقول[3]: " وكانت حلقته بالبصرة ينتابها أهل العلم، وطلاب الأدب، وفصحاء الأعراب والبادية".

ولا يقف الأمر عند هذا النص، بل تتعدد الأخبار عن هذه الحلقة، ومن طرقها

---

(١) النزهة ٤٣.

(٢) السيرافى ٢٧، النزهة ٣١، ابن خلكان ٢ : ٤١٦، القفطى ٢ : ٣٦٥، ياقوت ٢٠ : ٦٤، البغية ٢ : ٣٦٥ . ابن قاضى شهبة ٢٥٢.

(٣) نفس المواضع.

من الأعراب للسؤال خاصة. قال أبو زيد[1]: "وقف علينا أعرابى فى حلقة يونس النحوى فقال: "الحمد لله كما هو أهله، وأعوذ با لله أن أذكّر به وأنساه، خرجنا من المدينة – مدينة رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم – ثلاثين رجلا ممن أخرجته الحاجة، وحمل على المكروه، لا يمرِّضون مريضهم، ولا يدفنون ميتهم، ولا ينتقلون من منزل إلى منزل وإن كرهوه، وا لله ياقوم لقد جعت حتى أكلت النوى المحرق، ولقد مشيت حتى انتعلت الدم، وحتى خرج من قدمى بخص ولحم كثير. أفلا رجل يرحم ابن سبيل، وفل طريق، ونضو سفر. فإنه لا قليل من الأجر، ولا غنى عن ثواب ا لله عز وجل، ولا عمل بعد الموت. وهو الذى يقول جل ثناؤه (من ذا الذى يقرض ا لله قرضا حسنا فيضاعفه له) مَليّ وفى ماجد واجد جواد، لايستقرض من عوز، ولكنه يبلو الأخيار". قال: فبلغنى أنه لم يبرح حتى أخذ ستين دينارا".

ويذكرنا هذا الخبر بالمقامات، التى كانت تدور حول فن السؤال والكدية، ويعتمد بطلها على فصاحته فى إغراء الناس على التصدق عليه. ويجعلنا هذا نعيد النظر فى كون البذور الأولى لفن المقامات وُجدت عند أبى بكر بن دريد كما ظن الدكتور زكى مبارك[2] . ونبعد فى الزمن ونرى بذورا أقدم غرست فى حلقة يونس النحوى، وعلى أيدى جماعة من رواد حلقته الدائمين مثل أبى زيد الأنصارى وأبى عبيدة، أعجبوا بما رأوا من أعراب يسألون الناس فى الحلقة، ويفوهون بالمعجب من القول، فاتخذوا منهم أساسا بنوا عليه بناء فنيا جميلا[3].

وعندنا خبر يدل على أن هذه الحلقة كانت تضم أعرابا من قبائل شتى. فقد

---

(١) الكامل ١ : ٣٠٥.

(٢) النثر الفنى فى القرن الرابع ١ : ١٩٧ – ٢٠١.

(٣) انظر أيضا القفطى ٢ : ٣٦٦ . والمزهر ٢ : ٥٢٢.

رووا[1]: "قال رجل من الأزد فى مجلس يونس النحوى: وددت وا لله أن بنى تميم جميعا فى جوفى على أن يضرب وسطى بالسيف. قال له شيخ فى ناحية المجلس حر مازى من بنى تميم: يا هذا، يكفيك من ذاك.. ".

ولدينا عدة أخبار أخرى تحكى لقاء تم بين يونس بن حبيب وبعض الأعراب. ولكنها لا تبين موضع هذا اللقاء غير أننا نستنبط منها أنه لم يكن فى حلقته. ونستطيع أن نستنبط من بعضها أنه كان فى البصرة، مثل ذلك الأعرابى الذى روى قصته أبو عبيدة. قيل[2]: "جاء عن عمر فى الحديث أنه قال: ثلاثة أسفار كذبن عليكم: كذب عليكم الحج، كذب عليكم الجهاد، كذب عليكم العمرة. قال أبو عبيدة: هكذا سمعتها من العرب يرفعون بها فى معنى الاغراء .. ما خلا أعرابيا من غنى - وكان فصيحا - فإنه نصب. وذلك أنه دخل منزلى فرأى شويهة مضرورة فقال: مابال هذه على ما أرى؟ فقلت: إنا لنعلفها. فقال: كذب عليك البزر والنوى. فأتيت به يونس بن حبيب، فكتبها عنه، وكتب بعد ذلك منه علما كثيرا. وقال: هذا القياس".

وتصور لنا الأخبار المروية عن يونس والأعراب العلاقة بينهم، وكيف كان يسلك الرجل شتى الطرق ليحصل على مايريد منهم. فكان أحيانا يقتصر على الجلوس معهم والاستماع إليهم دون أن يتدخل فى شىء. قال ابن سلام[3] : "سمع يونس أعرابيا وقد قال له أعرابى آخر: كبرت وا لله. قال: أجل، لقد طالت حياتى،

---

(١) العقد الفريد ٤ : ٥١.

(٢) نوادر أبى مسحل الأعرابى ١١١- ٤.

(٣) أبو أحمد العسكرى ٧٤. وانظر ذيل الأمالى ١١٩، وأضداد أبى الطيب ٦٤٩، وجمهرة اللغة لابن دريد ٣: ١٦٣، ومجالس ثعلب ٨.

وتحنت قناتي، وابيضت سراتي".

وكان في بعض الأحيان يحاور الأعراب ويغريهم على أن يمنحوه أخبارهم. قال ابن سلام[1] : "سمعت أعرابيا يخبر يونس قال: فارق أعرابي امرأته فقالت: إن كنت إذا أكلت لتحتف، وإذا شربت لتشتف، وإذا نمت لتلتف. قال: وا لله إن كنت لبولة منعة، طلعة قبعة".

وكان في أحيان أخرى يلجأ إلى السؤال المباشر. قال[2] : "سألت أعرابيا فقلت: أمسكين أنت أم فقير؟ فقال : لا بل مسكين".

وقد وصل الينا أسماء بعض الأعراب الذين اتصل بهم يونس وأخذ عنهم. وأهمهم رؤبة بن العجاج، الذى رأينا سابقا غضبته له حين هاجمه شبيل بن عزرة الضبعي. وقد لاحظ القدماء العلاقة الوثيقة بين الرجلين، فأعلن أبو الطيب عن يونس[3] : "كان شديد الاختصاص برؤبة بن العجاج".

وتنوعت صور أخذ يونس عن رؤبة. فكان أحيانا يكتفي بمجرد الاستماع إليه وتسجيل حديثه، كما فعل[4] حين روى أن رؤبة يقول: "ما جاءت حاجتُك" بالرفع.

وكان في أحيان أخرى يرصد ما يرويه من شعر غيره، والطريقة التي ينشده بها[5]، كما فعل حين أعلن أن رؤبة كان ينشد البيت التالى لأحد بني مذحج[6]

---

(١) مجالس ثعلب ٤٥١.

(٢) شرح ابن الأنباري للمفضليات ٢٣٥. وانظر المنصف ٣ : ١٨.

(٣) مراتب النحويين ٢٢.

(٤) الكتاب لسيبويه ١ : ٢٥.

(٥) الكتاب ١ : ١٦١.

(٦) ينسب البيت إلى هنى بن أحمر الكناني (انظر المرجع نفسه).

بالرفع:

عجب لتلك قضية، وإقامتى فيكم على تلك القضية أعجب

وكان فى أحيان ثالثة يوجه السؤال المباشر إلى رؤبة. روى أبو عبيدة[1] : "سأل يونس رؤبة عن قول ا لله تعالى (ما بعوضة) فرفعها، وبنو تميم يعملون آخر الفعلين والأداتين فى الاسم. وأنشد رؤبة بيت النابغة مرفوعا:

قالت : ألا ليتما هذا الحمام لنا إلى حمامتنا ونصفه فقد"

لم يكن يستهدف فى كل أسئلته النحو كما سبق، بل كان أحيانا يريد اللغة، ويقصد معرفة معانى بعض الألفاظ. قال أبو عبيدة[2] : سمعت يونس بن حبيب يسأل رؤبة عن السانح والبارح فقال: السانح ما ولاك ميامنه، والبارح ما ولاك مشائمه".

وكان يونس أحيانا يعرض على رؤبة ما عنده فيعلق عليه. روى أبو عبيدة[3]: "وأنشده يونس بيت جرير:

إنى- إذا الشاعر المغرور جربنى - جار لقبر على مران مرموس

فقال رؤبة: كذب وا لله، ما تميم بمران، انما هو بذات عرق، وقبر معد بمران".

وفى بعض الأحيان لم يكن يونس هو السائل أو المتحدث، بل كان رجلا غيره، فسجل هو ما وقع، إذ وقع فى حلقته. قال ابن سلام[4]: "سمعت يونس يقول:

---

(١) مجاز القرآن ١ : ٣٥.

(٢) شرح ديوان زهير ٥٩.

(٣) الموشح ١١٩.

(٤) الموشح ٢١٨.

كان رؤبة عندى، فقال له رجل: ما معنى قول العجاج:

وحبس الناس الأمور الحبسا

فقال له رؤبة: قلبه ويلك".

وبلغ من إلحاج يونس على رؤبة أن ضاق به ذرعا، فقال له ذات مرة[1]: "حتام تسألنى عن هذه الأباطيل وأزخرفها لك؟ أما ترى الشيب قد بلع فى لحيتك".

وقد ظهر أثر ذلك جليا فى مرويات يونس، فإنه نسب إليه فيضا زاخرا من المعلومات اللغوية والنحوية والأدبية. فلا عجب أن ادعى أنه "غلام رؤبة".

وبالرغم من ذلك لم يتقبل يونس كل شيء تفوه به رؤبة دون جدال، بل كان فى بعض الأحيان يؤاخذه ويؤاخذ أباه لاشتقاقات يخرجان فيها على القياس عنده، حتى ضاق به رؤبة وقال له[2] : علينا أن نقول وعليكم أن تعربوا.

وأخذ يونس أيضا من أبى مهدية من ثقات الأعراب وروى عنه. قال[3]: "ذهبنا إلى أبى مهدية فى عقب مطر نسأله عن حاله – وكان قد بنى بيتا فى ظاهر خندق البصرة وسماه جناحا – فقلنا له: كيف أنت يا أبا مهدية ؟ فقال:

عهدى بجناح إذا ما ارتزا وأذرت الريح ترابا نزا

أن سوف تمضيه وما ارمأزا كأنما لز بصخر لزا

أحسن بيت أهرا وبزا

---

(١) السيرافى ٢٨ . ابن سلام ٥٨١. البغية ٢ : ٣٦٥. المزهر ٢ : ٣٦٣. أبو أحمد العسكرى ١٥٠ . العقد الفريد ٦ : ٢٦٧. النزهة ٣٢. القفطى ٢ : ٣٦٦ . ابن خلكان ٢ : ٤١٦.

(٢) سعيد الأفغانى: فى أصول النحو ٥٦. (الحواشى). وانظر مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ١٤: ٣٢٧.

(٣) ابن دريد : جمهرة اللغة ٢ : ٣٢٦.

يقال: بيت حسن الأهرة والظهرة: إذا كان حسن المتاع. قال: وما كان فى البيت إلا حصير مخرق".

وحكى أبو الطيب خبرا يدل على أن يونس كان على صلة بأبى الدقيش، الذى وصفه أبو الطيب بأنه "كان أفصح الناس"، قال عن الأخفش[1]: "قال يونس: سألت أبا الدقيش: ما الدقيش؟ فقال: لا أدرى، انما هى أسماء نسمعها فنتسمى بها".

ولكن هذا الخبر نفسه مروى عن الخليل، بل كان من رواته أبو الطيب[2] عن الأخفش أيضا. غير أننا نلاحظ فى رواية الخليل قوله: "دخلنا على أبى الدقيش نعوده" فتحدث بضمير الجماعة. فربما كان العائدون للرجل كثيرين، وكان فيهم الخليل ويونس.

وروى السيوطى خبرا يدل على أن يونس أخذ عمن يكنى بأبى المحلم، قال[3]: "عن أبى المحلم قال: أنشدت يونس أبياتاً من رجز فكتبها على ذراعه ثم قال لى: إنك لجياء بالخير". فإن كان قصد أبا المحلم الشيبانى، الذى ألف كتب الأنواء، والخيل، وخلق الانسان، كان الخبر غير صحيح لأن ابن النديم[4] يصرح أنه مات فى سنة ٢٤٨، أى بعد وفاة تلاميذ يونس، فمحال أن يروى عنه.

ويبدو أن يونس أخذ عن أبى طفيلة الحرمازى ثم استضعفه بعد إقامته مدة فى البصرة. قال أبو عبيدة[5]: "قال أبو طفيلة: طه: يارجل. فأتكره يونس وقال: أظنه

---

(١) مراتب النحويين ٤٠ – ٤١. المزهر ٢ : ٣١٨.

(٢) مراتب النحويين ٤٠.

(٣) المزهر ٢ : ٣٠٤ .

(٤) الفهرست ٤٦.

(٥) مجاز القرآن ٢: ١٥ (الحواشى).

سمعها عندنا.. أين سمعت هذا؟ فقال" بالبادية. فقال له يونس: ألست أخبرتنا أنك قدمت البصرة في حطمة فكنت مؤذن عمران القصير عشر سنين، أو قال: نحوها".

وذكر الجاحظ أن يونس أخذ عن رجل قد نعجب أن يأخذ عنه، لأنه غير عربي، قال[1]: "كان يونس بن حبيب يسمع منه (من أبي على الأسوارى) كلام العرب ويحتج به". ولكننا حين نطلع على إفاضة الجاحظ في الثناء على الرجل ووصف فصاحته، يزول كثير من عجبنا. وبالرغم من ذلك أظن أن الجاحظ أراد أن يونس احتج بالأسوارى فيما نقله عن العرب توثيقا له، ولم يرد أنه احتج بلغته.

وكان يونس لا يقصر جهوده على أحد، بل كان يبحث عن المعرفة في كل مظانها. فكان ممن بحث عنها عندهم الشعراء. فسعى إليهم واستمع إلى أشعارهم. وقد مر بنا في حواره مع الكسائي تصريح منه أنه استمع إلى الفرزدق وهو ينشد شعره[2]. كذلك اتصل بذي الرمة وروى أشياء عنه. ذكر الأصمعي عن يونس[3] أنه سأل ذا الرمة عن كلام ليس على وجهه، فقال له: أتعرف اليتن؟ وهو الولد الذي تخرج رجلاه قبل رأسه عند ولادته. قال: نعم. قال: فكلامك هذا يتن.

نتبين من هذه الأخبار حرص يونس بن حبيب على علوم العربية، وإقباله عليها، لايشغله عنها شاغل، وبحثه عنها في كل مجال، وعند كل أهل للبحث عنده. واجتمع هذا الجهد الدائب إلى ذاكرة واعية، جعلت أبا الخطاب زياد بن يحيى يقول[4] : "مثل يونس كمثل كوز ضيق الرأس لايدخله شيء إلا بعسر، فإذا دخله

---

(١) البيان والتبيين ١ : ٣٦٩.

(٢) وانظر كتاب سيبويه ١ : ٢٥٣.

(٣) ابن دريد : جمهرة اللغة ٢ : ٣١.

(٤) القفطي ٢ : ٣٦٤.

لم يخرج منه" – يعنى لاينسى وكان الرجل الذى يتحلى بهذه الصفات ذا شخصية قوية، وعقل حر، ورأى مجتهد. فكانت الثمرة عالما يبرز بين العلماء، ويحوز الشهرة بين المشهورين. فلا يخمله عَلم، ولا يطفئه نجم. فقرنت البصرة بينه وبين أشهر أبنائها من العلماء حينئذ: الخليل بن أحمد الفرهودى[1].

(١) آثرت هذه النسبة مجاملة ليونس الذى كان يحتمها، وإن كان الفراهيدى أشهر.

obeikandl.com

الفصل الثالث

باذل العلم

حلقته

ليس غريبا إذن أن يتنبه طلبة العلم إلى رجل بالصفات التى تبينت لنا سابقا، بل الغريب ألا يفعلوا. وليس غريبا أن يلتفوا حوله، فيؤلفوا واحدة من حلقات البصرة العلمية. وخاصة إذا وضعنا نصب أعيننا قول أبى زيد[1] : "ما رأيت أبذل لعلم من يونس".

ولست أستطيع أن أحدد مبدأ هذه الحلقة، ولكنى عثرت على خبر يدل على أنها كانت قائمة قبل وفاة الخليل. قال النضر بن شميل[2] : "جاء رجل من حلقة يونس فسأل الخليل عن شيء ..".

ولما انتقل الخليل إلى جوار ربه انفرط عقد حلقته، وانخرط كثير من أفرادها فى حلقة يونس أو ثبتوا فيها بعد أن كانوا يترددون بينها وبين حلقة الخليل. بل نفهم من بعض الأقوال أنه شغل المكان الشاغر فى حلقة الخليل[3] . فصارت حلقته فى وصف مروان بن أبى حفصة لها: "فلم أر حلقة أعظم من حلقة يونس".

ولعل من أكبر الأدلة على عظم هذه الحلقة واحتفالها بالناس قصد السائلين

---

(١) سمط اللآلى ١٩٥. القفطى ٢ : ٣٦٤.

(٢) الشريشى ٢ : ٢٤٧ . الشذرات ١ : ٢٧٦ . مرآة الجنان ١ : ٣٦٤.

(٣) نزهة الألباء ٤٣.

إياها، كما أبانت بعض الأخبار السابقة، وكما نرى فى قول أبى عبيدة[1]: "كنت فى حلقة يونس فجاء أعرابى. فوقف علينا فقال: "من ينصرنى نصره ا لله". فقال يونس: "أتتكم وا لله من قرب: من يرزقنى رزقه ا لله. قال ا لله عز وجل: ﴿من كان يظن أن لن ينصره ا لله﴾ أى يرزقه ا لله".

وقد طال عمر هذه الحلقة بطول عمر صاحبها، حتى قال أبو زيد الأنصارى[2]: "جلست إلى يونس بن حبيب عشر سنين، وجلس إليه قبلى خلف الأحمر عشرين سنة" . وربما مال بنا الظن إلى أن أبا زيد بالغ فى قوله أو تهاون فى ذكر السنين. ولكننا نجد الظاهرة تتكرر عند تلميذ آخر للرجل، هو أبو عبيدة، الذى قال[3]: "اختلفت إلى يونس أربعين سنة أملأ كل يوم ألواحى من حفظه". فهذا التكرار يقطع الشك أو يضعفه، وخاصة إذا قرناه بأن الرجل عاش قرابة قرن من الزمان.

وعرفنا سابقا أن هذه الحلقة التى امتازت بالعظم وطول العمر، توفر لها التنوع أيضا، فكانت مقصد فئات كثيرة من الناس كما وصفها الواصفون. ونستطيع أن نطمئن إلى هذا الوصف لأن الأخبار المتعددة تؤيده. وقد أوردت آنفا من الأخبار ما يكشف عن كونها مقصد الأعراب للالتقاء بهم والتحدث معهم أو لسؤال المترددين عليها.

وتردد على الحلقة أيضا الشعراء لانشاد ما استحدثوا من شعر، كما فعل

---

(١) القفطى : ٢ : ٣٦٦.

(٢) القفطى : ٢ : ٣٦٦. ياقوت ٢٠: ٦٥، ابن خلكان ٢ : ٤١٦. ابن العماد ١ : ٣٠١.

(٣) القفطى: ٢: ٣٦٦. ياقوت ٢٠: ٦٥، ابن خلكان ٢: ٤١٦. أبو الطيب ٢١، المزهر ٢: ٣٩٩. ابن العماد ١: ٣٠١.

مروان بن أبى حفصة فى مدحته للمهدى التى أراد أن يستفتى فيها يونس، وفعل بشار بن برد فى أبياته التى كانت السبب المباشر فى مقتله.

غير أن الهدف الأول الذى رمى إليه كل الذين قصدوا الحلقة هو "علم العربية"، الذى برز فيه يونس، وبرز فيه تلاميذه الملتفون حوله. وكان قصد الكسائى حلقة يونس ضربة حظ للدارسين، إذ أثار من النقاش ما لفت أنظار كثيرين فسجلوا بعضه، فأعطونا صورة مما كان يدور فى الحلقة، ومسالك الحوار فيها. وقد أوردت عدة أخبار فى هذا الشأن، غير أننى أحب أن أضع هنا هذه الصورة المفصلة. قال المازنى[1] : "إن مروان بن سعيد المهلبى سأل الكسائى بحضرة يونس: "أى شيء تشبه (أى) من الكلام؟ " فقال: "ما ومن" . فقال له: "فكيف تقول : لأضربن من فى الدار؟ " قال : "لأضربن من فى الدار". قال : "فكيف تقول: لأركبن ما تركب؟" قال: "لأركبن ما تركب". .قال : "فكيف تقول : ضربت من فى الدار؟ فال: "ضربت من فى الدار". قال: "فكيف تقول: ركبت ما ركبت؟" قال: "ركبت ما ركبت". قال : "فكيف تقول : لأضربن أيهم فى الدار". قال: "لأضربن أيهم فى الدار". قال: "فكيف تقول: ضربت أيهم فى الدار؟" قال: "لايجوز". قال: "لم؟" قال: "(أى) كذا خلقت".

وكان يونس فى بعض الأحيان هو الذى يثير تلاميذه، إذ يختار أحدهم، ويوجه إليه سؤالا، ليمهد السبيل أمام النقاش. روى العباس بن ميمون قال[2]: "سمعت الأصمعى – وذكر مروان بن أبى حفصة فقال: كان مولدا ولم يكن له علم

---

(١) السيرافى ٢٧. مجالس العلماء ٢٤٤. المزهر ٢: ٣٧٣، الخصائص ٣ : ٢٩٢.

(٢) الموشح ٢٥١.

باللغة، حضرته فى حلقة يونس، وسأل يونس عن قول زهير:

فبتنا عراة عند رأس جوادنا يزاولنا عن نفسه ونزاوله

فقال مروان: من العرواء من البرد. فقلت له: أخطأت، لو كانت من العرواء لقال: فبتنا معروين، انما عنى أنهم باتوا مشمرين كما يقال: تجرد فلان للأمر".

وكانت حلقة يونس – شأن الحلقات العلمية الحية – مسرحا لمعارك أدبية، إثر خلافات تنشب بين روادها. روى التوزى[1] : "صحف الفيض بن عبد الحميد فى حلقة يونس بن حبيب – وأنشد بيت ذى الأصبع العدوانى:

عذير الحى من عدوا ن كانوا حية الأرض

قال الفيض: جنة الأرض – فقال خلف الأحمر يهجوه:

لنا صاحب مولع بالخلاف كثير الخطاء قليل الصواب

أشد لجاجة من الخنفساء وأزهى–إذا ما مشى– من غراب

إذا ذكروا عنده عالما ربا حسدا أو رماه بعاب

وليس من العلم فى كفه إذا ذكر العلم غير التراب

أضاليل جمعها شوكر وأخرى مولدة لابن داب

فزاد إبان على أبياته – وذكر تصحيفا لأبى العتبى، وقد ذكر رجلا فقال: يكنى أبا الضيم، وانما هو آبِى الضيم – فقال أبان:

فلو كان ما قد روى عنهما سماعا ولكنه من كتاب

---

(١) الأوراق ٣٥.

رأى أحرفا شبهت في الهجاء سواء إذا عدها في الحســـاب

فقال : أبى الضيم يكنى أبا وليس (أبى) إنما هو آبـــــى

وفى يوم صفين تصحيفـــة وأخرى له فى حديث الكلاب

وتصحيف فيض بن عبد الحميـ ـد فى جنة الأرض أو فى الرباب

وعالى بذلك فى صوتـــه كقعقعة الرعد بين السحـــاب"

فكانت حلقة يونس بذلك مجمعا للمذاكرة، والاستشارة، والمناشدة، والمخابرة. قال الأصمعى[1] : "أول من نعى المنصور بالبصرة خلف الأحمر: كنا فى حلقة يونس، وجاء خلف فسلم وقال: "قد طرقت ببكرها أم طبق" فقال يونس: وما ذاك يا أبا محرز؟" فقال: "فتنجوها خبرا ضخم العنق" فقال: لم أدر بعد. فقال: "موت الامام فلقة من الفلق" فارتفعت الضجة بالاسترجاع.

تلاميذه

لما كان يونس بن حبيب رضى الخلق، باذلا للعلم، التف حوله كثير من التلاميذ، وعظمت حلقته كما رأينا. وكان الرجل محظوظا فيهم، فبرز منهم كثيرون فى علوم شتى.

فاشتهر منهم فى اللغة أبو عبيدة معمر بن المثنى، وعبد الملك بن قريب الأصمعى، وأبو زيد سعيد بن أوس الأنصارى[2]، وأبو محمد يحيى بن المبارك

---

(١) الزمخشرى: ربيع الأبرار ٤ : ٦٤ ظ.

(٢) أبو الطيب ٣٩ – ٤٠ . المزهر ٢ : ٣٩٩. ياقوت ٢٠ : ٦٤.

اليزيدى[1] ومحمد بن المستنير قطرب. وطالت صلة أولهم بالرجل فكثرت روايته عنه كثرة واضحة. واختص به آخرهم دون غيره من اللغويين[2] .

واشتهر منهم فى النحو أبو بشر عمرو بن عثمان سيبويه، وأبو عمر صالح بن إسحاق الجرمى[3] . وقد اتفق القدماء[4] على أن سيبويه "روى عنه وأكثر" ومصداق قولهم الاحصاء الذى قام به الدكتور مهدى المخزومى[5] وأبان له أن سيبويه ذكر يونس "فى ثمانين ومئة موضع من كتابه وربما أورد ليونس فصلا كاملا كما جاء فى بحث التصغير". ولهذا السبب صرح صاحب المصون أن سيبويه أدرج أهم أقوال يونس فى كتابه، قال[6]: "ثم جمع سيبويه علم البرعاء من النحويين القدماء كلهم، فذكر فى كتابه مذهب الخليل، ومذهب يونس، ومذهب أبى عمرو، ومذهب ابن أبى إسحاق..".

ولحسن الحظ أن يونس اطلع على كتاب سيبويه وأقر كل ما حكاه عنه. قال المبرد[7] : قال يونس – وقد ذُكر عنده سيبويه "أظن هذا الغلام يكذب على الخليل". فقيل له: "قد روى عنك أشياء فانظر فيها". فنظر فقال: "صدق فى جميع ما قال، هو قولى".

---

(١) أبو الطيب ٩٨.

(٢) أبو الطيب ٦٧. البغية ٢ : ٨ . النزهة ٩٨.

(٣) السيرافى ٥٦. البغية ٢ : ٨ . النزهة ٩٨.

(٤) السيرافى ٢٧، ٣٧. البغية ٢ : ٢٢٩، ٣٦٥. القفطى ٢ : ٣٦٥. ابن قاضى شهبة ٢٥٢. ابن خلكان ٢ : ٤١٦.

(٥) الخليل بن أحمد ٢١٩.

(٦) ١١٩.

(٧) السيرافى ٣٨، أبو الطيب ٧٦ – ٧، البغية ٢ : ٢٢٩. النزهة ٣٩. الزبيدى ٤٩.

وبسبب هذا القول كان كتاب سيبويه المعتمد الأول لمن يريد أن يدرس آراء يونس، وأن يثق بأن ما بين يديه من أقوال صادرة حقا عن الرجل. وعلى هذا الأساس أقمت دراستي.

وتتفق المراجع أيضا أن بعض أعلام الكوفيين قصدوا يونس بن حبيب ونقلوا عنه، أعني بذلك أبا الحسن علي بن حمزة الكسائي، وأبا زكريا يحيى بن زياد الفراء[1] . أما الكسائي فقد وقع بصرنا عليه عدة مرات في حلقته. وأما الفراء فقد أخذ عن الرجل نحوا[2] ، وشعرا[3] . ولاحظ الأستاذ سعيد الأفغاني خلافا غير متوقع في هذه المناسبة، قال[4] : "الطريف تشادّ البصريين والكوفيين في قراءة الفراء على يونس بن حبيب البصري أستاذ سيبويه تشادا على غير المنتظر، فالكوفيون يزعمون أنه استكثر عنه، والبصريون يدفعون ذلك".

واشتهر من تلاميذه في الأدب والأخبار أبو محرز خلف بن حيان الأحمر، وأبو عبد الله محمد بن سلام الجمحي[5] ، إن لم أذكر أبا عبيدة لمروره في اللغويين. ونظرة واحدة في كتاب طبقات فحول الشعراء للجمحي، وفي الأخبار التي أوردتها في دراستي هذه كافية لتبين دين الرجل لأستاذه.

وذكر ابن الجزري[6] جماعة من تلاميذه في قراءة القرآن، هم "ابنه حرمي بن

---

(١) السيرافي ٢٧، ٤٤. البغية ٢ : ٣٣٣، ٣٦٥. أبو أحمد العسكري ١٢٥. المزهر ٢ : ٤١٠. النزهة ٣١. القفطي ٢ : ٣٦٦. ياقوت ٢٠: ٦٤. ابن قاضي شهبة ٢٥٢. ابن خلكان ٢: ٤١٦.

(٢) مجالس ثعلب ٤٥٦.

(٣) السيرافي ٢٨.

(٤) في أصول النحو ١٦٦.

(٥) المزهر ٢ : ٤٠٥.

(٦) غاية النهاية ٢: ٤٠٦.

يونس، وأبو عمر الجرمي، وإبراهيم بن الحسن، وعبد الله بن سليمان، وعيسى الأسدي، وموسى بن عبد الصمد الأيلي".

وذكر ابن أبي حاتم[1] رجلين رويا عنه الحديث، هما زياد بن عثمان بن زياد ابن أبي سفيان، وقريش بن أنس.

---

(١) ابن قاضي شهبة ٢٥٢.

obeikandl.com